ISSN: 1112-5357
E-ISS: 2602-5736N
مجلة الحضارة الإسلامية
المجلد: 25 العدد: 1 المجلد: 25

التسامح المذهبي ببلاد المغرب الإسلامي في القرون الهجرية الأولى
Religious tolerance in the Islamic Maghreb in the first hijri centuries

زقاوي محمد
مختبر تاريخ الجزائر جامعة وهران1 (الجزائر)

zegaoui mohamed
Labo d'histoire Algérienne,Université d'oran (Algérie)

zegaouimohamed@gmail.com address

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2024/07/20
تاريخ القبول: 2024 /11/24
تاريخ النشر: 31/ 12 /2021
****
الكلمات المفتاحية:
التسامح المذهبي؛
المالكية؛
الحنفية؛
الإباضية؛
الشيعة.

الملخص

عرفت بلاد المغرب الإسلامي بعد حركة الفتح دخول مختلف التيارات المذهبية والفكرية التي كانت في المشرق، كان ذلك بفعل عمل دعاة المذاهب أو عن طريق رحلة المغاربة إلى المشرق في طلب العلم، ونتيجة ذلك كانت بلاد المغرب الإسلامي تموج بمختلف التيارات الفكرية، ومع مطلع النصف الثاني من القرن الثاني الهجري فقدت بلاد المغرب الإسلامي انسجام وحدتها السياسية والمذهبية بنشوء دول ذات انتماءات سياسية مختلفة، ومعها أضحت بلاد المغرب فسيفساء من المجموعات السياسية والعقدية المختلفة.

قد يبدوا للناظر لهذا المشهد الجديد أن بلاد المغرب الإسلامي كانت موطنا للفتن والحرب، إلا أن الأمر غير ذلك وكأن المغاربة قد استأنسوا من هذا الاختلاف ما يؤسس لغد جديد يسوده التنافس الفكري الحر الذي يؤسس للحضارة والتمدن، فاستقرت الأوضاع السياسية في فترات محددة وانتهج حكامه سياسة التسامح المذهبي. ترتكز مداخلتي حول النقاط التالية:- الحالة الفكرية والثقافية لبلاد المغرب الإسلامي حتى القرن 03هـ - نماذج من سياسة التسامح المذهبي.

Abstract

After the Islamic conquests, the Islamic Maghreb became aware of the entry of various doctrinal currents that were in the Levant.this was due to the work of the preachers of these doctrines,. as a result, the Islamic Maghreb was rippling with various intellectual currents. with the beginning of the second half of the second hijri century, the Islamic Maghreb lost the harmony of its political and doctrinal unity with the emergence of countries with different political affiliations, and with it the Maghreb became a mosaic of different political and ideological groups.

It may seem to the viewer of this new political scene that the Islamic Maghreb was a homeland of strife and war, but it is not as if the Moroccans have taken advantage of this difference, which establishes a new tomorrow filled with free intellectual competition that establishes civilization and urbanization, so the political situation stabilized in specific periods and its rulers adopted a policy of sectarian tolerance.

Article info

Received *20/07/2024*
Accepted *24/11/2024*
Publication *2024/12/31*

******

Keywords*:*
The Maliki;
Hanafi ;
Abadism ;
Shiites;

1. مقدمة:

عرفت بلاد المغرب الإسلامي كغيرها من أقاليم العالم الإسلامي وفود مختلف المقالات سواء التشريعية أو العقدية في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، ويمثل القرن الهجري الثاني أهم فترة في تشكيل الخريطة المذهبية لبلاد المغرب، فقد كان نصفه الأول عصر الصفرية والإباضية والواصلية، ومع بداية أوسط القرن الهجري الثاني عرفت المذاهب السنية الانتشار كالمذهب الحنفي الذي تبنته دولة الأغالبة وحرصت على نشره ثم الاستمرار لبعضها كالمذهب المالكي، وساد التشيع في نهاية القرن الثالث هجري بتأسيس دولة الفاطميين.

خلق هذا الوضع المذهبي تنافسا فكريا تحول في الكثير من الأحيان إلى صراع دموي تغذيه السياسة والحكم انتصارا لموقف ما، خدمة لديمومة السلطة والامتياز، وقد سجلت لنا كتب التاريخ العام وكتب السير والتراجم الكثير من أشكال هذا الصراع سواء السلمي أو المادي الذي حسم في الأخير الشكل الفقهي والعقدي لبلاد المغرب الإسلامي.

قد يبدوا للناظر لهذا المشهد السياسي الجديد أن بلاد المغرب الإسلامي كانت موطنا للفتن والحرب، إلا أن الأمر غير ذلك وكأن المغاربة قد استأنسوا من هذا الاختلاف ما يؤسس لغد جديد يسوده التنافس الفكري الحر الذي يؤسس للحضارة والتمدن، فاستقرت الأوضاع السياسية في فترات محددة وانتهج حكامه سياسة التسامح المذهبي، فتوجه نخبتها إلى حسم المسائل العقدية من خلال التماس الحجج العقلية والنقلية، عن طريق التعليم والتلقين أو عن طريق المناظرة أو كتابة الردود والتأليف.

2. الأغالبة والإقرار بالاختلاف الفكري

1.2 توسيع دائرة الاختلاف:

واكبت بلاد المغرب الحركة الفكرية التي شهدتها بلاد المشرق باعتبارها من أقاليم الدولة الإسلامية، تفرض هذه التبعية السياسية من جهة المغاربة الالتزام بمرجعية الوحدة الفكرية الإسلامية بين المشرق والمغرب في إطار الحضارة الإسلامية، فكان المشارقة زعماء سياسيين أو علماء حريصين على أن تصل

آراؤهم ومذاهبهم إلى مختلف ربوع العالم الإسلامي، من خلال الدعاة[1] والولاة الذين يقومون بشأن الرعية إداريا وقضائيا وعسكريا.

إن استقرار الأوضاع السياسية في فترات محددة ببلاد المغرب الإسلامي خاصة في حواضره بعد اكتمال حركة الفتح الإسلامي وانتهاج سياسة التسامح من طرف بعض الأمراء الأغالبة بتيني المذاهب وتشجيع الحوار والجدل بينها من العوامل المحفزة على إذكاء التنافس الفكري، الأمر الذي يتطلب براعة في طرق الاستدلال والبرهنة من أجل اقناع الخصوم والتأثير على العامة، فبرزت الردود والمناظرات مما كان له الأثر الإيجابي في تطور الدراسات العقدية والفقهية[2].

اعتمد بعض أمراء الأغالبة طابع التمدن والتحرر الفكري تأسيا بخلفاء بني العباس في المشرق، إذ عمد الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي(261-289هـ/875-902م) إلى تأسيس بيت للحكمة بالقيروان تأسيا بخلفاء بني العباس، وتميزت مناهجها بالاهتمام بالعلوم العقلية كالفلسفة والطب والفلك والترجمة والحساب، وذلك على حساب الفقه والحديث.

وإن كان الفقه الحنفي هو مذهب الدولة فقد حُظي أصحابه بالمكانة عند الأغالبة مثلما مكنوا للفكر الاعتزالي وتبنوا آراءه، وهو ما مكنهم من إحداث ثورة فكرية في بلاد المغرب[3]، وإن كان هذا لا يمنعهم

1- من أهم هؤلاء الدعاة: بعثة الفقهاء العشر من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة (100هـ/718م) وداعيتي الصفرية والإباضية عكرمة بن عبد الله مولى بن عباس(105هـ/723م) وسلمة بن سعد (135هـ/752م)، وداعية الشيعة عيسى بن محمد النفس الزكية، وداعية واصل بن عطاء المعتزلي عبد الله بن الحارث، تزامن قدوم هؤلاء الدعاة في فترات زمنية متقاربة جدا، يمكن تحديدها بالعقود الأولى للقرن الثاني للهجرة بين سنتي(100-110هـ/718-728م)، ينظر: المالكي أبو بكر عبد الله(449هـ/1057م): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأخبارهم وأوصافهم، تحقيق بشير بكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994،ج1، ص99-117. عبد المجيد بن حمدة: المدارس الكلامية بإفريقية الى ظهور الأشعرية، مطبعة دار العرب، تونس، ط1، 1986، ص162. الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987، ص97.

2- الفرد بيل: المرجع السابق، ص102.

3- يحي هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، 1965.ص185. عبد العزيز المجذوب: الصراع المذهبي في إفريقية الى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، 1975، ص63، 65. الحبيب الجنحاني: لمحة عن الحياة الفكرية في المجتمع القيرواني القديم، مجلة الفكر، العدد06، مارس1966، تونس، ص25.

من قبول تواجد الفرق والمذاهب الأخرى، فقد كانت لكل فرقة حلقة خاصة بها بجامع القيروان تتذاكر أفكارها وتلتمس لها الحجج للدفاع عنها ونشرها قبل أن يتولى سحنون بن سعيد التنوخي المالكي(ت240هـ/854م)[1] القضاء للأغالبة سنة(234هـ/849م) ويأمر بتفريق حلقهم التي كانت تقام بالجامع[2].

2.2 التواصل لتحقيق التعايش

كان للأمير زيادة الله الثالث الأغلبي(290-296هـ/903-909م) مجالس للمناظرة يشارك هو بإدلاء رأيه فيها، كما هو الحال مع المناظرة التي كانت بين أبي عثمان سعيد ابن الحدّاد(ت بعد 302هـ/914م)[3] وأحد وجوه المعتزلة عبد الله بن الأشج(ت286هـ/899م)، أفحمه فيها بن الحداد حول مسألة خلق القرآن، مما اضطر تدخل الأمير وأكمل مناظرة ابن الحداد وانتهى الأمر في الأخير بينهما إلى قول الأمير لابن الحداد:

---

[1]- عبد السلام بن سعيد الملقب بسُحنون: انتهت اليه الرياسة في العلم ببلاد الغرب، شامي الأصل قيرواني المولد أشتهر بشجاعته في الحق، تولى القضاء للأغالبة سنة(234هـ/884م)، تجمع المصادر على دوره في تثبيت وغلبة المذهب المالكي على المذاهب الأخرى، له ترجمات وافية وطويلة في كتب التراجم المالكية، من أهم آثاره كتاب المدونة وهو في الفقه المالكي. ينظر، القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك في لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص339-362. المالكي: المصدر السابق، 345-375.

[2]- القاضي عياض: المصدر السابق، ج2، ص347-348، عبد العزيز المجدوب: المرجع السابق، ص69.

[3]- سعيد ابن الحدّاد (217-302هـ/832-915م): سمع من سحنون وكان يخالفه، عرف بالجدل والمناظرة وقوة الحجة، اشتهر بمناظراته للشيعة وجرأته، كان الإباضية يعتبرونه منهم ربما لشجاعته في مناقشة المذاهب الحنفي والشيعي، كانت له ردود على أراء عبد الله بن يزيد مرجع النكارية في العقائد، وكان يسمي مدونة سحنون بالمدودة، مما جعله محل نقمة من طرف المالكية، ولعله سبب آخر يدعم ما ذهب اليه بعص الإباضية، وإن كانت المصادر القديمة لا تسعفنا في ذلك، له عدة كتب أهمها "كتاب المقالات" رد فيه على أهل المذاهب أجمعين، و"كتاب الاستواء"، ينظر، الدباغ أبو زيد عبد الرحمن الأنصاري(696هـ/1297م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضي، مكتبة الخانجي، مصر، والمكتبة العتيقة تونس، دت، ج2، ص295. الخشني محمد بن الحارث (361هـ/972م): طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد زنهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1994، ص61-62، الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992،ج2، ص362. الهامش رقم3. ويستبعد محمد حسن محقق كتاب السير للشماخي أنه شخص آخر غير سعيد بن محمد بن الحداد، ينظر: الشماخي أبو العباس أحمد بن أبي عثمان(928هـ/1522م): كتاب السير، تحقيق محمد حسن، دار المدار، بيروت، ط1، 2009، ج3، ص940.

أنت لا تضطرني إلى مذهبك وأنا لا أضطرك إلى مذهبي، وهي دلالة واضحة على وروح التسامح المذهبي الذي كان عليه بعض أمراء الأغالبة[1].

ومن الذين اشتهروا بالمناظرة في عهد الأغالبة العنبري(260/874هـ)[2] الذي كانت له مناظرات مع الجعفري السني(ق3هـ/9م)[3] في حضرة الأمير الأغلبي زيادة الله الأول(201-223هـ/818-838م) الذي كان من دعاة مسألة خلق القرآن[4].

وكان ممن يشجع على عقد المجالس العلمية للمناظرة القاضي الأغلبي أبو العباس عبد الله بن أحمد بن طالب(ت276هـ/889م) يجمع في مجلسه المختلفين في الفقه ويغري بينهم[5]، بل وجلب العلماء من المشرق لمناظرة علماء افريقية[6]، من ذلك أن محمد بن سحنون(ت256هـ/870م) استُدعي عند الوزير الأغلبي علي بن حميد التميمي(ت251هـ/865م) ليناظر أبا سليمان النحوي المعتزلي حول مسألة خلق القرآن، وقد ذكر المالكي في كتابه رياض النفوس تفاصيل المناظرة التي كانت بينهما[7].

---

[1]- عبد المجيد بن حمدة: المرجع السابق، ص52.

[2]- ترجم له القاضي عياض وذكر أنه سمع من سحنون بن سعيد وكان له مقام عند زيادة الله الأول، يحتمل أن يكون إباضيا رغم أن بعض المصادر تشير الى أنه معتزلي بحجة قربه من زيادة الأول، ومناظرته للجعفري(العقد الثاني من ق3هـ) في خلق القرآن، ينحدر من قسطيلية المعروف عنها أنها من مواطن الإباضية بالمغرب الأدنى، وقد كان محل نقد من طرف أبي حسان اليحصبي(ت226هـ/841م)-(كان سحنون ممن يأخذ عنه، كان مفوها حاضر الحجة، قويا على المناظرة ذابا عن السنة قليل الهيبة للملوك)-، بعد الخوض في هذا النوع من المسائل، وقال عنه أصحاب كتاب معجم أعلام الإباضية أنه من المناظرين عن الإباضية، إلا أن مصادرهم معاصرة، وبقي الحكم عليه احتمالي لا يتجاوز الترجيح، ينظر، القاضي عياض: ترتيب المدارك، ص441. المالكي: رياض النفوس، ج1، ص286، عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي في إفريقية الى قيام الدولة الزيرية، ص142. محمد بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2000، ص322.

[3]- لم أعثر له على ترجمة.

[4]- عبد العزيز المجدوب: المرجع السابق، ص141.

[5]- الدباغ: المصدر السابق، ج2، ص159.

[6]- نجم الدين الهنتاتي: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، تبر الزمان، تونس،2004، ص99.

[7]- المالكي: المصدر السابق، ج1، ص449.

ولم تختلف فترة حكم كل من عبد الله الثاني(289-290هـ/902-903م) وزيادة الله الثالث(290-296هـ/903-909م) التي عرفت كذلك اهتماما بالعلوم العقلية بعد أن استجلبوا نخبة من علماء المشرق، فكان لهم الأثر في تطور الدراسات العقلية كرد فعل على الرقابة التي سلطها علماء المالكية على الحياة الفكرية بإفريقية خلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة التاسع ميلادي[1].

وضم هذا البيت العديد من العلماء في مختلف التخصصات العقلية كالطب والفلسفة، منهم الطبيب البغدادي إسحاق بن عمران(ت295هـ/907م) الذي لبّى دعوة الأمير إبراهيم الثاني(261-289هـ/875-902م) فنزل إفريقية سنة(264هـ/878م) واستقر بها، وبه عرف الطب والفلسفة في المغرب الأدنى[2]، وتلميذه أبو يعقوب إسحاق بن سليمان(ت320هـ/932م) عرف كذلك بالطب والفلسفة وفد على إفريقية من بغداد سنة(291هـ/903م) بطلب من الأمير زيادة الله الثالث[3].

3. الرستميون واستعاب الآخر

1.3 حرية المعتقد:

ارتبط اسم الخوارج في بلاد الإسلام في المصادر التاريخية خاصة السنية منها بالعنف والتشدد الفكري وبالغلو في الدين، وأكد هاتين الصفتين (العنف والغلو) ما صاحب انتشار المذهب الخارجي في بلاد المغرب الإسلامي من تهييج للبربر على ولاة الأمويين والعباسيين، هذا ناهيك عن الصراع المذهبي بين مختلف الطوائف في بلاد المغرب الذي كان مصحوبا بتأييد سياسي وما لهذا الأخير من أثر في الدعاية والإشاعة اتجاه الطرف الآخر، كانت الإباضية ضحية له على الرغم من تنكرها لأعمال الخوارج وتبرئها منهم.

إن مظاهر التسامح الديني والثقافي للإباضية في بلاد المغرب الإسلامي يلتمس من خلال مبادئها أولا، ومن خلال علاقتها مع الآخر ثانيا، ولعل في وصف تيهرت عاصمة الدولة الرستمية بعراق المغرب ما يدل

---

[1]- نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص99.

[2]- محمد عابد الجابري: نحن والتراث، مركز دراسات الوحدة العربي، بيروت، ط1، 2006، ص225.

[3]- ابن عذاري المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد(712هـ/1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج1، ص141.

على قمة هذا التسامح نظرا للجو الفكري السائد فيها، حيث سمح لمختلف الطوائف والفرق بممارسة نشاطها الفكري بكل حرية.

انعكس استقرار الأوضاع السياسية في تيهرت الرستمية على مختلف مناحي الحياة الاقتصاد والإجتماعية والفكرية، فكانت محل جذب لمختلف الفئات، وكانت عاصمة لمختلف المذاهب والفرق كالمالكية والأحناف والمعتزلة، وهو ما أفرز مجتمع تتنوع فيه المشارب العقدية والفقهية، هذا المناخ ساعد على قيام جدل بين مختلف التيارات المشكلة للمجتمع الرستمي[1].

وقد عبر ابن الصغير عن هذا الجو قائلا: "إلا أن الفقهاء تناجت المسائل فيما بينهم وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيه عاقبة، ومن أتى إلى حلق الإباضية قربوه وناظروه ألطف مناظرة"[2]. قال ابن الصغير: "ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك"[3]، في هذا تعبير عن الوضع الثقافي في بلاد الرستميين بتيهرت فاستحقت أن يطلق عليها عراق المغرب.

ولم يكن هذا غريبا على أئمة الدولة الرستمية باعتبارهم أئمة علماء، فقد ورد عن الإمام أبي اليقظان محمد بن أفلح(261-281هـ/874-894م)، أنه بلغ في العلم مبلغا عظيما، ووضع أربعين كتابا في الاستطاعة، أما والده أفلح بن عبد الوهاب(208-258هـ/823-871م) لم يبلغ الحلم إلا وقد قعدت عليه ثلاث حلق: واحدة في الكلام وأخرى في اللغة والثالثة في الفقه[4].

---

[1]- الفرد بل: المرجع السابق، ص149-150. عبد القادر بوعقادة: الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرنين7و9هـ/13و15م، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، (2015/2014)، ص187، 190.

[2]- ابن الصغير(ق3هـ/9م): أخبار الأئمة الرستمين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.ص117.

[3]- ابن الصغير، المصدر نفسه، ص102.

[4]- الوسياني أبو الربيع سليمان بن عبد السلام(ق6هـ/12م): كتاب السير، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ط1، 2009، ج1، ص327.

إن شهادة ابن الصغير في كتابه "سير الأئمة" عن عدالة الأئمة الرستميين وتسامحهم، والعلاقة الطيبة بين الرستميين بتيهرت والأمويين بالأندلس، وتتلمذ الطلبة الإباضيين على علماء المالكية في الأندلس والقيروان، وكذا الحال مع الطلبة المالكيين على علماء الإباضية بتيهرت شواهد تأكد ذلك.

إن سياسة التسامح المذهبي المنتهجة من طرف الرستميين مع مختلف المذاهب خاصة الأحناف[1] الذين استمر وجودهم في العهد الرستمي، ويبدوا أن عددهم لم يكن قليلا بدليل بناء مسجد خاص بهم بتيهرت عرف باسمهم[2]، وهو ما كان كذلك مع المالكية الذين كانوا يأدون الشعائر الدينية وفق مذهب الإمام مالك بحرية تامة ما عدا المسجد الجامع[3].

هذا وإن لم تذكر المصادر أي نشاط للشيعة في تيهرت الا أنهم كانوا مع وجوه القوم من المذاهب الأخرى في استقبال أبي عبد الله الشيعي حين دخل تيهرت سنة(296هـ/909م)، مما يوحي بروح التسامح المذهبي العالي الذي كان يسود الحياة الفكرية بالدولة الرستمية لذلك عُدت تيهرت من المراكز الثقافية الكبرى في بلاد المغرب الإسلامي.

واستمر هذا الأمر حتى بعد سقوط دولتهم، ومن أبهى صور التسامح الذكي مع الأخر ما ذكره الدرجيني عن أحد شيوخ المذهب أبو محمد جمال المدوني(حي بعد:354هـ/967م)[4] كان يصلي بجماعة

---

[1]- يعتمد الفقه الحنفي كثيرا على الفرضيات على نحو(فإن كان كذا) في شكل سلسلة من الأسئلة المتتابعة وهذا ما جعل الإمام مالك بن أنس يوجه أسد بن فرات لما أكثر هذا النوع من الأسئلة الافتراضية الى العراق، والغاية من ذلك الاستعداد لوقوع النوازل، وهو ما نجد له أثرًا بارزًا في المصنفات الفقهية والكلامية الإباضية المغربية على نحو إن "سأل سائل، قلنا"، ما يوحي بتأثر رجال الإباضية بفقهاء الحنفية في استدلالاتهم، خاصة وأن الأحناف في بلاد المغرب الإسلامي كانوا يحسبون على المعتزلة، ولا يخفى على الباحث في المذاهب والفرق الاشتراك في الكثير من الأصول. ينظر، نجم الدين الهنتالي: المرجع السابق، ص35.

[2]- جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص95.

[3]- ابن الصغير: المصدر السابق، ص77.

[4]- قال عنه الدرجيني "فقيه الأسلاف.. الشامل ما أشرف على الشتات.. وهو من السباق في العلم والورع والندى"، كان عاملا لأبو خزر يعلا بن زلتاف على ورجلان حين خرج على الفاطميين بعد مقتل أبا القاسم يزيد بن مخلد، جهز قوة من ورجلان إلى بغاي الا أن أبا خزر تعجل الخروج قبل وصول المدد من ورجلان فكانت الهزيمة مع من معه من الإباضية

أكثرهم أهل الخلاف ممن يرى القنوت في صلاة الصبح[1]، فكان يقنت بالآيات التي فيها الدعاء، فذلك من شأنه عدم فساد الصلاة على مذهب الإباضية، فكانوا يشكرونه ويثنون عليه[2].

2.3 المناظرات:

وأما بالمغرب الأوسط فقد كان المعتزلة من جملة رعايا الدولة الرستمية، فقد ذكر البكري(487هـ/1094م) في حديثه عن تيهرت ووصف إمامها أنه "رأس الإباضية وإمامهم وإمام الصفرية والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة، وكان مجمع الواصلية قريبا من تيهرت وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا"[3]، هذا وقد أطنبت المصادر التاريخية الإباضية في الحديث عن المناظرات التي كانت بين الإباضية والمعتزلة على ضفاف نهر مينا قرب تيهرت[4].

و بالرغم من تمرد أصحاب الإعتزال على السلطة السياسة الرستمية يعقدون مناظراتهم مع الإباضية على ضفاف نهر مينا[5]، وهو ما يؤكد أن هذا النموذج من الصراع في فترات تاريخية متقطعة لا تعبر عن الصورة الحقيقية للعلاقة بينهما، فصور الإعتدال والتسامح المذهبي تكاد تطغى على طبيعة العلاقة بينهما[6].

سنة(354هـ/967م)، ينظر: الدرجيني، طبقات المشائخ، ج2، ص345، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ج2، ص114.

[1]- لا شك أنه يقصد بذلك المالكية فهم يقنتون في صلاة الصبح على عكس الإباضية، والمسألة مسألة فقهية خلافية.

[2]- الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص347.

[3]- البكري أبو عبيد الله(487هـ/1094م): المسالك والممالك، تحقيق أندري فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص735.

[4]- أبو زكريا يحي بن بكر(471هـ/1078م): سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق إسماعيل العربي دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982، ص102-107. الدرجيني: المصدر السابق،ج1، ص57. ابن الصغير: المصدر السابق، ص82. الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص362. إبراهيم بحاز: الميزابيون المعتزلة- قراءة جديدة لنصوص قديمة-، مجلة الحياة، العدد01، جانفي1998، نشر جمعية التراث، غرداية، ص129.

[5]- المصدر نفسه: ص82-83.

[6]- Alloua Amara: La structuration des ibadites-wahbites au Maghreb (xie-xve siècle). p262.

أورد ابن الصغير المالكي في كتابه "أخبار الأئمة الرستمين" تفاصيل مناظرة مع أحد وجوه الإباضية بتيهرت كان هو أحد طرفيها حول مسألة الولي في الزواج[1]، وإن كانت هذه المناظرة تظهر تفوق السني إلا أنها تعبر عن روح التسامح المذهبي والفكري اللامحدود الذي كان يطبع الحياة الثقافية في العصر الرستمي، وواضح من سياسة التسامح المذهبي المرادف لانتشار الجدل وشيوع المناظرات ودعوة مختلف المذاهب لها أنها تهدف إلى محاولة إقناع الغير بمذهبهم.

ولم تكن مناظرات الإباضية دائما على هذه الشاكلة، فقد نزل أبو القاسم بن العمودي وهو من مشائخ المتصوفة قادما من توزر على قاضي نفطة(عمر بن عزوزة النفطي) فأكرمه وكان ممن دُعي الى حضور المجلس أبو الحسن علي بن العزابي[2]، فعرفه به، فلما علم أنه إباضي قال بن العمودي أهو من اللذين يبغضون عليا -يقصد علي بن أبي طالب ﷺ- قال العزابي: من أنبأك هذا يا شيخ؟ قال: كذا يذكرون عنكم، قال: لا، قال: كان أبي من فقهاء الوهبية[3] وقد سماني عليا، ثم أخذ معه في مواضيع أخرى حتى استمال قلبه ولم يفترقا حتى قال له أبا الحسن أريد أن لا تفارقني مدة إقامتي بهذا البلد[4].

---

[1]- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص104.

[2]- كان المالكية يطلقون هذا اللفظ على أتباع المذهب الإباضي بعد تأسيس هذا النظام، كان هذا العزابي(أبو الحسن علي) من المقربين عند القاضي وكان فقيها، وربما دُعي الى المجلس للمناظرة.

[3]- الإباضية الوهبية هي جماعة الإباضية الأم التي تفرعت عنها بقية الفرق الأخرى بعد الفتن الإباضية، وقد اختلف المؤرخون حول أصل هذه التسمية بين من ينسبها للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بحجة ظهور هذه التسمية بعد فتنة النكار، وما تحوير الإسم من الوهابية الى الوهبية إلا تناسبا وتسهيلا للنطق بها عند الأمازيغ، وذهب آخرون الى نسبتها لعبد الله بن وهب الراسبي، بحجة أنها لو كانت النسبة تعود الى عبد الوهاب بن عبد الرحمن لكانت الوهابية لا الوهبية، أطلقت هذه التسمية على الإباضية الأم حتى يتميزوا عن الفرق الأخرى المنشقة عنها. ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص37. الوسياني: سير، ج1، ص280. عمرو خليفة النامي: دراسات عن الإباضية، ترجمة مخائيل خوري، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002، ص195-169، وهي الفرقة الوحيدة التي كتب لها البقاء في مناطق مختلفة ببلاد المغرب إلى اليوم في، حين تفاوتت المدة الزمنية لبقاء بقية الفرق الآخرى، إذ لم تبلغ هذه الأخيرة القوة والفكر ما تستطيع به أن تكون تيارا ذا شأن يستطيع أن يقارع التيار الوهبي الغالب على إباضية المغرب، أطولها كان من نصيب النكارية حتى نهاية القرن التاسع الهجري.

[4]- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص516-517.

4. الفاطميون وإدارة الصراع

1.4 الحوار بين الجمود والاستثمار:

لم تكن فترة وجود الفاطميين بالمغرب كلها فترة صراع عسكري وسياسي، بل تخلل ذلك فترات من التسامح المذهبي خاصة مع البدايات الأولى لتأسيس الدولة حتى ولو اتخذ منه وسيلة لتحقيق أهداف سياسية، إذ حرص الفاطميون في أول عهدهم بالمغرب الظهور بمظهر التّسامح الذي لا يفرّق بين المذاهب حتى وإن كان ذلك من منطلق سياسي لا منطلق المذهب والعقيدة.

سعى الفاطميون من الوهلة الأولى في تأسيس دولتهم ونشر دعوتهم إلى امتلاك وسائل تثبيت عقيدتهم وترسيخ مذهبهم في بلاد المغرب، بامتلاك أدوات الاستدلال الكلامي من خلال الانفتاح على مختلف العلوم خاصة العقلية، وشجعوا على الخوض في مختلف أصنافها كالفلسفة والجدل من أجل تبرير اختياراتهم السياسية والعقدية[1].

واستعانوا في ذلك خاصة بالفلسفة اليونانية[2] وبمناهج المعتزلة في تثبيت العقائد، خاصة وأنهم يتفقون معهم في الكثير من المسائل الكلامية كمسألة خلق القرآن وعدم الرؤية في الآخرة[3]، لذلك يلمس في التراث العقدي الكلامي الفاطمي مسحة فلسفية واضحة، وهو ما يتوافق مع عقيدتهم القائمة على التأويل الباطني للنصوص من القرآن والسنة. ومن ثم فقد ساهموا بشكل مباشر في إثراء الحياة الفكرية بمقالات جديدة كانت محفزا لازدهار الجدل الكلامي في بلاد المغرب الإسلامي.

إذ حافظ داعيتهم أبوعبد الله الشيعي(ت298هـ/911م)عند دخوله القيروان سنة(296هـ/909م) على سُنة التناظر بين الفرق والمذاهب ببيت الحكمة الأغلبي، وشجع على المناظرات وجلس لسماعها والمشاركة فيها، فقد كان هو نفسه بارعا في الجدل فصيح اللسان مثال للرجل المتعقل الذي يعرف كيف

---

[1]- نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص157.

[2]- محمد جديدي: الحكم الفاطمي من البحث عن الحرية الى ممارسة السلطة، ضمن كتاب من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، تنسيق بوبة مجاني، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط 1، قسنطينة، 2007، ص 114-115.

[3]- عبد المجيد بن حمدة: المرجع السابق، ص243.

يدافع عن مذهبه بالحجة المقنعة أو بالسفسطة[1] وحسن التخلص[2]، وقد أحصى حسن حسني عبد الوهاب ما دار من مناظرات بين دعاة الاسماعلية وأهل السنة نحو أربعين مجلسا[3]، وبلغ عدد المتكلمين خلال القرن الثالث هجري نحو ثلاثين متكلما حسب نفس المؤرخ[4].

ساهم الفاطميون ببلاد المغرب بشكل مباشر في رفع الرقابة التي كان يفرضها علماء المالكية على الحياة الفكرية خاصة الخوض في المسائل الكلامية، كالإجراء الذي اتخذه سحنون بن سعيد(240هـ/855م) سنة(234هـ/849م) بتفريق حلق أصحاب الاتجاهات الخالفة وتواصل ذلك إلى نهاية العهد الأغلبي[5].

وكان لأخيه أبي العباس المخطوم(ت298هـ/911م) مجلس زاخرا بالمناظرات التي كثرت وتواترت بين دعاتهم وعلماء المذاهب الأخرى خاصة مع المالكية، رغم ما عرف عن هذا الأخير من التعصب لمذهبه والعجلة وكثرة الكلام وضعف العقل[6]، وهو ما حمل أخيه أبوعبد الله توجيه خطاب له في شكل عتاب "لقد أفسدت علينا من أمر البلد وأهله ما كانت بنا حاجة إلى اصلاحه"[7] ورفض مقترح أخية بنفي فقهاء المالكية من القيروان وقال "إن دولتنا دولة بيان وحجة وليست دولة قهر فترك الناس على مذاهبهم"، وتكون هذه المناظرات أحيانا بإشراف الحكام الفاطميين الشخصي عليها بحضور أبي عبد الله وعبيد الله المهدي(297-322هـ/934-909م).

---

[1]- هي ممارسة الإقناع بالقدرة على توظيف اللغة في فصاحتها وبلاغاتها الكلامية، بإنتاج قياس مقدمات صحيحة تفيد الحق في ظاهرها وباطنها باطل، مما ينتج أشباه حقائق في قوالب المعاني والحقائق الواضحة واليقينية. والغرض من ذلك تغليط الخصم واسكاته. ينظر، جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، د ط، 1994، ج1، ص658-660. الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، 2004، ص287.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص124. موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها الى منتصف القرن الخامس هجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص418.

[3]- حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ق1، ص259.

[4]- المرجع نفسه، ق1، ص219.

[5]- نجم الدين الهنتالي: المرجع السابق، ص146.

[6]- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص150.

[7]- المصدر نفسه، ج1، ص155.

ومن المسائل الكلامية التي كانت محل نقاش في هذه المناظرات مسألة الإمامة والنبوة مع سعيد ابن الحداد(ت302هـ/915م) ذكر تفاصيلها الدباغ(696هـ/1297م) في كتاب "معالم الإيمان"[1] ولم تتوقف هذه المناظرات إلا بعد أن تعرض أبوعبد الله الشيعي للاغتيال.

2.4 التسامح وقضاء المصالح:

هذا وقد كان الخليفة المنصور الفاطمي(334-341هـ/945-952م) ما تشده اللذات إلا لذة الحكمة[2]، وكان لآخر خلفائهم في بلاد المغرب المعز لدين الله الفاطمي(341-365هـ/952-975م) بلاط للمجالس الفقهية والمناظرات العقدية بين مختلف المذاهب والفرق، يثير بينهم المسائل للتناظر وقرب منه العلماء وأشركهم في مجالس العلم والحكمة كما يسميها القاضي النعمان(363هـ/973م)، ويخصص لها أوقاتا في سائر أيامه، وينكب في ليله ينظر في الكتب والعلوم ويؤلف الكتب أكثر ليله[3]، خاصة بعدما شعروا بخطورة النتائج المترتبة على سياسة التعصب المذهبي فلجؤوا إلى اللطف والملاينة مع أتباع المذاهب الأخرى خاصة الإباضية، حتى ولو كانت تُقية.

شارك علماء الإباضية في المجالس المخصصة للمناظرة التي كان يعقدها الأمراء والوزراء الفاطميون، فقد كان أبو تميم المعز لدين الله الفاطمي(341-365هـ/952-975م) يجمع بين يديه علماء الفرق يتناظرون، وقد أشارت الى ذلك المصادر الإباضية إلى العديد من هذه المناظرات التي تفوق فيها علماء الإباضية باعتراف المخالفين[4]، يقول الشيخ الإباضي أبو نوح سعيد بن زنغيل(ق4هـ/10م) عن نفسه "ناظرت عن هذه النحلة بين يدي أبي تميم وأبي منصور(بلكين بن زيري الصنهاجي)(361-373هـ/972-984م) ولم يبق مذهب إلا غلبته"[5]، وكان أبو تميم المعز لدين الله لا يخفي إعجابه

1- الدباغ: المصدر السابق، ج2، ص298- 308.

2-القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوخ، دار لمنتظر، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص442.

3- المصدر نفسه، ص442.

4- أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص226. الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص136. صنفتها في مبحث المناظرات بين الإباضية والمعتزلة.

5- الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص353.

بمجادلات علماء الإباضية فكانوا محل احترام وتقدير، إذ قال عن يغلا بن زلتاف(ت380هـ/990م) عالم ورع، وعن سعيد بن زنغيل فتى مجادل[1].

5. خاتـــــــمة:

إن تمكن بعض الدعوات المذهبية من تأسيس كيانات سياسية ببلاد المغرب الإسلامي بداية من نهاية القرن الثاني للهجرة وانفصالها جغرافيا عن السلطة المركزية بالمشرق قد يشير إلى أن الاختلاف المذهبي أخذ طابع استعمال العنف أكثر منه إلى الحوار والجدل، مما يجعلنا نقول إن الهدف الأول كان إقامة دولة بدل نشر الدعوة. هذا التصور النمطي ليس صحيحا دائما، إذ أن إن شيوع الجدل والمناظرة في الكثير من الفترات التاريخية هو نتيجة لاستقرار الأوضاع السياسية وتوفير جو من التسامح المذهبي.

أمام هذا الوضع ازداد طموح المغاربة الى التعمق أكثر في فهم الدين، فخاضوا في التفسير والتأويل، ولم يعد الإيمان بالدين الإسلامي بسيطا، بل أصبح الإيمان يقوم على بناء الحجج وتركيب القناعات، بعد رواج أفكار هذه الفرق وحصول بعضها على موضع قدم في بلاد المغرب، وما إن استهل القرن الرابع هجري على بلاد المغرب حتى ظهرت أولى المؤلفات التي تهتم بشأن العقيدة والكلام.

البحث إن التفعيل الحقيقي لمبدأ الحوار بعيدا عن العنف ومحاولة إلغاء الآخر مع الابتعاد عن التعصب العرقي ظهر في أبهى صوره فيما يلي: تولية المناصب السياسية ودخول بعض الوجهاء في خدمة مخالفيهم. تتلمذ بعض طلاب العلم على المخالفين لهم في المذهب.

كانت المناظرات إحدى مظاهر النشاط العلمي الذي استخدمه علماء الفرق والمذاهب للانتصار لمذهبهم في مجادلاتهم مع المذاهب والفرق المخالفة، وأبانوا عن مقدرة في الرد على مخالفيهم من خلال المستوى العالي في التحكم في فنيات الجدل من خلال المسائل الكلامية التي كانت تتداول بين المناظرين تدل على ذلك المصنفات التي وضعها أصحابها في هذا المجال، فكان للمغاربة رصيد هام شأنهم شأن المشارقة في تطور الدراسات الفقهية والعقدية. محتوى الخاتمة هنا، وضع فيه تلخيصا لما ورد في مضمون البحث، مع الإشارة إلى أبرز النتائج المتوصل إليها، وتقديم اقتراحات ذات الصلة بموضوع البحث، وتقديم التوصيات المهمة إن وجدت.

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص 123.

6. المصادر والمراجع:

1) المالكي . أ. ب. ع. ا.، بشير ب. (1994). *رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأخبارهم وأوصا* (2 ط). دار الغرب الإسلامي: بيروت.

2) القاضي النعمان ا. ا.، الحبيب ا. (1996). *المجالس والمسايرات* (1 ط). بيروت: دار لمنتظر.

3) الهادي روجي إ.، ت حمادي ا. (1992). *الدولة الصنهاجية* (1 ط، م 2). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

4) الدرجيني أ. ا. أ. (1974). *طبقات المشائخ* (1 ط، م 2). قسنطينة: مطبعة البعث.

5) ابن عذاري المراكشي أ. ا. أ. ب. م.، ليفي ب. (1983). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (3 ط، م 1). بيروت: دار الثقافة.

6) ابن الصغير ا. ا.، بحاز إ. (1986). *أخبار الأئمة الرستمين*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

7) الجنحاني ا. (1966). لمحة عن الحياة الفكرية في المجتمع القيرواني القديم. *مجلة الفكر*, (6), 22-31.

8) الخشني م. ب. ا.، محمد ز. (1994). *طبقات علماء إفريقية* (ط1). القاهرة: مكتبة مدبولي.

9) الشماخي أ. ا. أ. .، محمد ح. (2009). *كتاب السير* (1 ط، م 3). بيروت: دار المدار.

10) الجرجاني ع. ا.، المنشاوي م. ا. (2004). *التعريفات*. القاهرة: دار الفضيلة.

11) البكري . أ. ع. ا.، أندري ف. ل. .، أندري ف. (1992). *المسالك والممالك* (م 2). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

12) الدباغ . أ. ز. ع. ا. ا. (1994). *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان* (م 2). مصر: مكتبة الخانجي.

13) بحاز إ. (1998). الميزابيون المعتزلة- قراءة جديدة لنصوص قديمة. *الحياة, 1* (1), 124-134.

14) القاضي عياض ا. ع.، محمد سالم هـ. (1998). *ترتيب المدارك وتقريب المسالك في لمعرفة أعلام مذهب مالك* (1 ط، م 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

15) أبو زكريا ي. ب. ب.، إسماعيل ا. (1982). *سير الأئمة وأخبارهم* (2 ط). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

16) الوسياني أ. ا. س.، بوعصبانة ع. (2009). *كتاب السير* (1 ط، م 1). مسقط، سلطنة عمان: نشر وزارة التراث والثقافة.

17) صليبا ج. (1994). *المعجم الفلسفي* (م 1). بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

18) جودت ع. ا. ي. (1984). *العلاقات الخارجية للدولة الرستمية*. لجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

19) حسن حسني ع. ا. (1972). *ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية*. تونس: مكتبة المنار.

20) المجذوب ع. ا. (1975). *الصراع المذهبي في إفريقية الى قيام الدولة الزيرية*. تونس: الدار التونسية للنشر.

21) بوعقادة ع. ا. (2015). *الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرنين7و9هـ/13و15 م* (أطروحة دكتوراة). كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر.

22) بن حمدة ع. ا. (1986). *المدارس الكلامية بإفريقية الى ظهور الأشعرية* (1 ط). تونس: مطبعة دار العرب.

23) الفرد ب.، بدوي ع. ا. (1987). *الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي* (3 ط). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

24) النامي ع. خ. (2002). *دراسات عن الإباضية* (1 ط). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

25) بابا عمي م.، آخرون آ. (2000). *معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي* (2 ط). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

26) جديدي م. . (2007). الحكم الفاطمي من البحث عن الحرية الى ممارسة السلطة. في *من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي* (1 ط). قسنطينة: منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي دار بهاء الدين للنشر والتوزيع.

27) الجابري م. ع. (2006). *نحن والتراث* (1 ط). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربي.

28) لقبال م. (1979). *دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها الى منتصف القرن الخامس هجري*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

29) الهنتاتي ن. ا. (2004). *المذهب المالكي بالغرب الإسلامي*. تونس: تبر الزمان.

30) هويدي ي. (1965). *تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.